متمرد خطير

يحتاج الباشا معونة الزعامة الشعبية مرة أخرى، عندما يقرر السلطان خلعه من منصبه بضغط من الإنجليز، بعد انتصارهم على فرنسا في معركة الطرف الأغر البحرية الشهيرة، وسيطرتهم على البحر المتوسط، ويصبح وضع محمد علي أكثر حرجًا من أي وقت سابق، فقد قرر الباب العالي بالفعل أن يخلعه من منصبه؛ استجابة للضغوطات الإنجليزية، وكان القنصل الإنجليزي في الإسكندرية الميجور ميسيت يراسل الحكومة الإنجليزية للعمل على عزل محمد علي، وأقنعهم أن السلطان العثماني قام بتعيينه تحت ضغط الزعامة الشعبية، فقامت الحكومة الإنجليزية بمراسلة السفير الإنجليزي في الأستانة، لإقناع السلطان العثماني أن محمد علي لم يكن إلا دُمية بين أيدي الفرنسيين، وأنه متمرد خطير يمكنه أن يضع الدولة العثمانية في خطر؛ فمن الأفضل للسلطان أن يُعيد الوضع كما كان قبل ذلك، بحيث يعين واليا عثمانيا يتواجد بالقلعة بلا صلاحيات تقريبًا، وأن يحكم مصر أمراء المماليك، ولكن هذه المرة بقيادة رجل قوي وهو الألفي صنيعتهم. وأضاف السفير للسلطان بعد هذه النصائح تهديدًا خفيا **حيث قال:**

– أما يا صاحب العظمة، إذا استمر هذا الوضع لفترة أطول، فستضطر الحكومة الإنجليزية لاتخاذ التدابير اللازمة لضمان أمن إنجلترا.

وكان الباشا يعرف تمام المعرفة أن الإنجليز يحاولون خلعه من منصبه بواسطة الضغط على السلطان، ولكنه كان مازال يراهن على زعماء الشعب في تدعيم مركزه، وخاصة السيد عمر مكرم، وتُؤتِ الضغوط الإنجليزية على بلاط السلطان أُكُلها، ففي صباح أحد أيام شهر يوليو سنة ١٨٠٦ يحل بشواطئ مصر صالح باشا، قبودان العمارة العثمانية، وبرفقته ثلاثة آلاف مقاتل، ومعه فرمانات تقضي أن يتبادل شخص يُدعى موسى باشا منصبه كحاكم لسالونيك مع محمد علي، وكان الألفي على علم بذلك، لأنه يراسل القنصل الإنجليزي في مصر، ويعرف منه تطورات الموقف الدولي، ولذلك زحف بجيشه في اتجاه الوجه البحري لملاقاة صالح باشا الذي ابتهج لوصوله إلى مصر ومعه موسي باشا.

ولنذهب إلى الجبرتي لنطلع على كتبه عن هذا الموضوع، فقد كتب ما يلي:

"وردت سعاة من الإسكندرية، وأخبروا بورود أربعة مراكب وفيها عساكر، وصحبتهم رسل وبعض أشخاص من الإنكليز، ومعهم مكاتبة خطابٍ إلى الألفي وبشارة بالرضا والعفو للأمراء المصريين المماليك من الدولة العثمانية بشفاعة الإنكليز، فلما وصلوا إليه بناحية حوش بن عيسى

بالبحيرة سر بقدومهم، وعمل لهم شنكًا، وضرب لهم مدافع كثيرة، وأرسلهم إلى الأمراء القبليين –المماليك بالصعيد– وبصحبتهم أحد صناجقه، ثم إنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر إلى المشايخ وغيرهم وكذلك إلى مشايخ العربان."

ويرسل صالح باشا رسولًا إلى محمد علي، ويلتقي به في بيته بالأزبكية، ويخبره أن السلطان قد عينه واليًا على سلانيك فيقول له محمد علي:

– سمعًا وطاعة لأوامر مولانا السلطان، ولكنني أريد فرصة لدفع المتبقي من رواتب الجند، وقدرها عشرون ألف كيس، وبمجرد الانتهاء من ذلك، سأتوجه فورًا إلى سلانيك، ولكن من سيتولى حكم مصر؟

– موسى باشا والي سلانيك سوف يحكم مصر بدلًا عنكم، ومعه أمراء المماليك البكوات.

– وهل رضي السلطان عنهم؟

– نعم، ولكنه اشترط أن يضمنهم المشايخ والعلماء في مصر ويكفلونهم.

– على أية حال، بلِّغ تحياتنا لصالح باشا وموسى باشا، وأخبره بردنا على رسالته.

– حسنًا، سأخبر صالح باشا بردكم.

وهكذا حصل محمد علي باشا على وقت يتصرف خلاله بحكمة ودهاء، بعد أن أظهر امتثاله للأوامر، وأمر لاظ أن يهدي رسول القبودان هدايا قيمة، ويرسل معه إلى القبودان ومن معه كثيرًا من العطايا والهدايا، وهي ما يمكن أن نسميه رشاوي عينية باهظة. وبمجرد مغادرة رسول صالح باشا، يرسل محمد علي من يستدعي السيد عمر مكرم. وفي أثناء انتظار حضوره يقول للاظ بك:

- إني أعرف الترك، وأعرف الطريقة التي تنجح معهم، فالرشوة هي وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس، وسوف أرسل منها كثيرا لرجال البلاط في الاستانة..

- فماذا عن الألفي يا أفندينا؟

- الألفي يا لاظ بك مكروه من بقية رؤساء المماليك..

- كالبرديسي وإبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهم يا أفندينا؟

- نعم يا لاظ، فهم ينقمون منه انفراده بالاتصال بالإنجليز، وكتمانه عنهم أسرار مفاوضاته معهم، وقد غادر الفيوم وتوجه لمقابلة صالح باشا دون أن يكاشف زملاءه بدخيلة نفسه، فغضبوا لذلك أشد الغضب.

- عفوًا، ولكن كيف عرفت ذلك يا أفندينا؟

- لقد وصل إليَّ من طرفهم سعاة يعرضون الصلح

- حقًّا يا أفندينا؟ ومتى كان ذلك؟ وكيف لم أعرف؟ وماذا كان ردكم عليهم يا عزيز مصر؟

فضحك الباشا وقال:

- كل هذه الأسئلة يا لاظ دفعة واحدة؟ سأجيبك عن سؤال واحد فقط، ولكن بإجابة غير كاملة، لقد تلقيت السعاة بالبشاشة والترحيب، وأرسلت معهم هدايا ورسائل للبكوات ستقلل من خطورة الألفي.